

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف

لما خُتِمت سورة هود بقوله تعالى:

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]

جاءت هذه السورة بعدها، وفيها قصة رسول من هؤلاء الرسل الكرام، وهو يوسف عليه السلام. يقول الله تعالى:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾
﴿الر﴾ سبق الكلام عليها.

﴿تِلْكَ﴾ هذه ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ بين يديك واضحة، بيّنة، سهلة، لا خفاء فيها ولا إبهام، فيها الهدى والنور، فيها الهداية والصلاح، فاتبع ما فيها، واعمل به.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: هذا الكتاب، على محمد ﷺ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بأفصح اللغات، وأكثرها بياناً، وأوسعها انتشاراً، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون ما فيه، وتعملون به، فتسعدون في الدنيا والآخرة.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ في هذا الكتاب، وهو القرآن ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الذي يتضمن العبر والحكم والعجائب، والذي ليس فيه إلا الحقائق ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: فيما نوحيه إليك، ﴿وَأِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل هذا القرآن، أو من قبل هذا القصص ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عنه، وعن معرفة ما فيه. ولذلك: فهو ليس من عندك، بل من عند الله، الذي أوحاه إليك قرآنا عربيا، وقصصا واقعا.

ومن هذا القصص قصة يوسف عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾

أي: اذكر يا محمد وقت أن ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ ذات يوم بعد أن استيقظ من نومه بكل أدب ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ورأيت ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ كذلك ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ جميعا ﴿لِي سَاجِدِينَ﴾.

وفهم أبوه تأويل الرؤيا، وعرف أن يوسف سيكون ذا شأن، وأن إخوته سيخضعون له، فخاف عليه من حسد إخوته له، لذلك:

﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا نَفْصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

يعني: ﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا نَفْصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ يا يوسف لا تحدث إخوتك بهذه الرؤيا، حتى لا يوقع الشيطان بينهم وبينك، ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ يؤذونك به، حيث ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

فاحذر عداوة الشيطان، و﴿لَا نَفْصُ رُءْيَاكَ﴾ هذه ﴿عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾. وهكذا حذره أولا. ثم أشار إلى تفسير الرؤيا ثانيا، فقال له:

﴿وَكَذَلِكَ يَجْهِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

أي: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ وهكذا تدل رؤياك يا بني علي: أن ﴿يَجْعَلِيكَ رَبُّكَ﴾ ويختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يُعَلِّمُكَ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: تعبير الرؤى وتفسيرها.

﴿وَ﴾ ثالثاً ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالإيحاء إليك، وإرسالك برسالته ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ بعفوه عنهم، وإدخالهم الجنة ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا يوسف ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق النبوة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيمن يختاره لها، ويشرفه بها.

ثم تبدأ تفاصيل هذه القصة على النحو التالي، يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ ﴿٧﴾

أي: في هذه القصة ﴿ءَايَاتٌ﴾ ودلائل على نبوة محمد ﷺ، وفيها عبر ومواعظ ودروس ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾، يستفيدون بها، ويتفكرون منها، في دنياهم، وآخرتهم.

ثم يدعو ربنا عز وجل إلى تذكر هذه القصة، وما فيها من دروس وعبر، فيقول:

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٨﴾

يعني: قال بعض إخوة يوسف لبعضهم الآخر: نحن عشرة رجال نخدم أبانا ونقوم على رعايته، ومع ذلك فهو يحب يوسف وأخاه، وهما أصغرنا، أكثر مما يحبنا نحن، ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ بهذا التصرف ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ عن الصواب ﴿مُبِينٍ﴾ واضح.

وكأن أحدهم يقول: ماذا تقترحون أمام هذا الفعل من أبينا؟ فكان الجواب من أحدهم:

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا يَحُلْ لَكُمْ وَجْهُ أَيُّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ﴿٩﴾

أي: أبعدوا ﴿يُوسُفَ﴾ عن وجه أبيكم، بأن تنفوه من الحياة بالقتل، أو من الأرض

التي فيها أبوكم بنفيه إلى أرض بعيدة عنه، وفي هذه الحالة: يكون حب أبيكم لكم وحدكم، ويعاملكم بعده معاملة حسنة، تكونون بها ﴿صَالِحِينَ﴾ معه، أو صالحين في نظره، أو صالحين بتوبتكم وندمكم على ما فعلونه بيوسف.

ويبدو أن الجميع وافقوا على اقتراح القتل، ولكن:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهٗ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٠)

يعني: رفض واحد منهم اقتراح القتل، وبدأ يشرح لهم كيفية إبعاد يوسف عن وجه أبيهم ﴿وَالْقَوْهٗ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ أي: في قاع البئر، فهو أهون من القتل، وأحرى أن ﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ الذين يسировون في الطريق، فيأخذونه معهم، ويبعدونه عن أبيكم، وهذا أسلم له ولكم ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ شيئاً مما تقترحون.

واقنعوا بالاقتراح وتوجهوا إلى أخيهم؛ ليتسنى لهم تنفيذ ما يريدون، وطلبوا منه أن يخرج معهم، وذهب يوسف ليستأذن أباه، فرفض أبوه أن يذهب يوسف معهم، وهنا: توجهوا إلى أبيهم:

﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ (١١)

أي: لم لا ترسله معنا، وتأميننا عليه، فنحن حريصون على مصالحه، حريصون على صيانته من كل أذى. ثم قالوا يا أبانا:

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ (١٢)

أي: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ اتركه يأتي معنا ﴿غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ في أكل الفواكه، وما يحب ﴿وَيَلْعَبْ﴾ كما يلعب من في سنه، وينطلق كما يحب ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ من كل مكروه وأذى. وهنا:

﴿قَالَ إِنِّي لَخِزْنَتِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (١٣)

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم:

أولاً: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُّنِي﴾ ويؤلم قلبي ﴿أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ بعيداً عني؛ فأصاب بالقلق عليه.

وثانياً: ﴿وَأَخَافُ﴾ عليه ﴿أَنْ يَأْكُلَهُ الدِّثْبُ﴾ منكم، ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ مشغولون بأموركم.

وسكتوا عن السبب الأول وهو حزن أبيهم على يوسف، ولكنهم أجابوا عن السبب الثاني وهو خوف أبيهم عليه من الدثب:

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الدِّثْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾

أي: ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الدِّثْبُ﴾ أي: كيف يأكله الدثب ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة نستطيع الدفاع عنه، لا يمكن أن يأكله الدثب، فأرسله معنا.

فأرسله معهم، وذهبوا به بعيداً عن أبيهم:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْتَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٥﴾

أي: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ بعيداً عن أبيهم، وعن العمران، واستقر رأيهم على نفيه بعيداً عنهم ﴿وَاجْتَمَعُوا﴾ كذلك على ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾ أي: في قاع البئر، كما اقترح واحد منهم سابقاً، ففعلوا ما أجمعوا عليه، وألقوه في قاع البئر، وتركوه وانصرفوا.

وهنا يقول رب العزة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وهو في الجب؛ اطمئنناً لقلبه، وتثبيتاً لفؤاده ﴿لَتُنْتَنَّهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ الذي فعلوه معك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الآن أنه يوحى إليك، ولا يشعرون أنك ستنتبهم بما يفعلون. وانصرف إخوة يوسف من عنده وتركوه.

﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾ ﴿١٦﴾

أي: عادوا إلى أبيهم في المساء، وهم ﴿يَبْكُونَ﴾ ويتباكون، وكأن أباهم سألهم: لماذا تبكون؟ فاعتذروا لأبيهم عما وقع ليوسف فيما زعموا:

﴿قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيُتْرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (٧)

يعني: ﴿قَالُوا﴾ وهم يكذبون على أبيهم ﴿يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ﴾ أي: نتسابق مع بعضنا البعض ﴿وَيُتْرَكْنَا يُوسُفَ﴾ وحده ﴿عِنْدَ مَتْلَعِنَا﴾ من ثياب وغيرها ﴿فَآكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ ونحن بعيدون عنه.

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: ما أنت بمصدق لنا فيما نقول، حتى ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق، فضلاً عن أنك لا تثق فينا أصلاً لحبك ليوسف، بل تسيء الظن بنا.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (٨)

والمعنى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ﴾ لأبيهم ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ لأنه ليس بدمه عليه السلام، وذلك؛ ليقنعوا أباهم أن الذئب أكله كما يزعمون.

ولكن ذلك لم يقنع نبي الله يعقوب، عليه السلام الذي سكت ولم يناقش، حيث ﴿قَالَ﴾ لهم فقط: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ الله أعلم به.

وأما أنا ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أتحملى به على تحمّل هذه المصيبة التي تزعمونها ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ بِقَوْنِي﴾ على ﴿تَحْمُلٍ﴾ ما تَصِفُونَ أنه حدث ليوسف.

ثم ينتقل السياق من حوار يعقوب عليه السلام وأولاده، إلى يوسف عليه السلام القابع في أسفل الجب، حيث يقول سبحانه:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩)

أي: ﴿وَجَاءَتْ﴾ مجموعة من الناس ﴿سَيَّارَةٌ﴾ من مَدِينٍ إلى مصر، لبعض

أغراضها ومصالحتها، فنزلوا قريباً من هذا البئر الذي فيه يوسف ليستريحون، فجلسوا، وأكلوا، وعطشوا ﴿فَازْسَلُوا وَارِدْهُمْ﴾ أي: أحدهم يريد الماء ليأتي لهم به، فذهب إلى البئر ﴿فَادَلَّى دَلْوَهُ﴾ الذي يُنزع به الماء من البئر، فتعلّق به يوسف فأخرجه الساقى، فلما رآه بعينه وأبصر حسنه ﴿قَالَ﴾ على الفور ﴿يَبْشُرِي﴾ طيبة ﴿هَذَا غُلْمٌ﴾ رزقنا الله به، ورجع به إلى الرفقة السيارة، وتشاوروا في أمره، واتفقوا على بيعه، ﴿وَأَسْرَوْهُ بِضْعَةَ﴾ أي: أخفوا أمره ليسيّعوه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وما يفكرون فيه، قادر على صنعه، ولكن له حكمة في ذلك سبحانه وتعالى.

وتحرّكت القافلة تسير، ومعها يوسف، من مدين إلى مصر، ووصلت القافلة مصر:

﴿وَشَرَوْهُ بِشَمْنٍ بِخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

يعني: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعوه ﴿بِشَمْنٍ بِخْسٍ﴾ أي: زهيد قليل، عبارة عن ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة، وما ذلك إلا لأنهم ﴿كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ الذين يرتضون أيّ ثمن له، لأنهم لم يدفعوا فيه شيئاً.

واشتراه أحد رجالات مصر، وذهب به إلى بيته.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ، وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي: لما وصل هذا الرجل الذي اشتراه إلى بيته، وهو فرح به، ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي: أحسني إقامته عندنا، واعتني به، وأحسني إليه ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ مالا إن بعناه، أو معاوناً لنا إن أبقيناه ﴿أَوْ نَخْذَهُ، وَلَدًا﴾ لنا. واستقر يوسف في هذا البيت.

ومن تدبير الله أنّ هذا البيت كان بيت عزيز مصر، الذي يقوم على خزائنها، يعني: وزير المالية، أو وزير الخزانة بلغة العصر.

﴿و﴾ كما نَجَّيْنَا يوسفَ من مكر إخوته، وأنقذناه من الجب، وعظَّمْنَا عليه قلب العزيز، ﴿كَذَلِكَ﴾ أخذنا في سلسلة الإنعام عليه، حيث ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بدأنا به رحلة التمكين في أرض مصر، ﴿و﴾ أيضًا ﴿لِنُعَلِّمَهُ مِن لَّدُنَّا﴾ ﴿تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ﴾ فهم الأمور، وتعبير الرؤى.

إخوته كانوا يفكرون ويحتالون لإيذائه، والسيارة يبيعونه عبدًا رقيقًا، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يفعل ما يشاء، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يخبئه القدر، ولا ماذا يريد الله.

وأقام يوسف عليه السلام في بيت العزيز:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٢﴾
يعني: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ لَمَّا تم خلقه، واكتمل عقله ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ حُسْنُ فَهْمٍ، وصلاح عمل، وُبعدًا عن الرذائل، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ عادتنا وسُنتنا ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ جزاء حسنًا.

ولكمال عقل يوسف، وحُسْنُ منظره، وجميل صفاته، وطيب خلقه، وحلو حديثه، وأدبه الجسم، أحبه كل من حوله، وأحبته امرأة العزيز حبًّا شديدًا، وصارت تتجمل له، وتتعرض إليه، حتى وصل الحال إلى ما يقول القرآن:

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

أي: ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ امرأة العزيز ﴿الَّتِي﴾ تملك أمره، حيث ﴿هُوَ﴾ يقيم ﴿فِي بَيْتِهَا﴾، وحديثه ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ وطلبت منه أن يواقعها، ﴿و﴾ كانت ساعة إذ قد ﴿غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ عليهما، ﴿وَقَالَتْ﴾ له صراحة: تعال إليّ افعل ما أريده منك، فقد تهيأتُ لك، وتجمّلتُ من أجلك، وطال شوقي إليك، ولكنه ﴿قَالَ﴾ لها على الفور: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله، وألجأ إليه أن يحميني، وينجيني ممَّا طلبت وتريدينه مني.

ثم قال: كيف أفعل ما تريدين، وزوجك ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ الذي أكرمني في هذا البيت،

﴿أَحْسَنَ مَثْوَىٰ﴾ إقامتي فيه؟ كيف أخونه؟ إنني لو فعلت ذلك، وهذا محال، أكون من الظالمين، حيث ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: فكيف تخونينه أنت؟

هذا هو التصرف الحسي الظاهري، الذي حدث بين امرأة العزيز، ويوسف عليه السلام. ويصور القرآن التصرف النفسي الخفي الذي كان منهما في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤)

أي: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ مع قصد وتصميم وعزم ليوافقها، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ عليه السلام همّ خاطر بحكم الطبيعة البشرية، دون قصد أو تصميم أو عزم على الفعل لقوة إيمانه، وشدة يقينه، وتركه لله؛ فأثابه الله عليه، ﴿لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لكان ما كان، ولذا لم يكن منه شيء، وهذا فهم أقرب إلى الطبيعة البشرية منه إلى العصمة النبوية.

أي: لم يتجاوز همّه - عليه السلام - الميل النفسي في لحظة من لحظات الضعف البشري، ثم تداركته العناية الإلهية، جزاء إحسانه وصبره الطويل ومثابرته في جهاد النفس والشیطان، بالبرهان المثبت على الحق، والمُعِين على الصمود، والصارف عن الخطيئة.

وأما هذا البرهان الذي رآه فلم يبيّنه القرآن، ونحن لهذا الموقف نستريح.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: على هذا النحو من رعايتنا له، وإنعامنا عليه، أربناه برهاننا؛ لنصرف عنه السوء والفحشاء، ونقيه أخطارهما.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين صحّحوا عقيدتهم، وصدقوا في عباداتهم، وطهروا أخلاقهم، وأحسنوا في معاملاتهم إخلاصاً لله تعالى.

ولكن هل انتهت العاصفة في بيت العزيز؟ وهل سكت الانفجار الداخلي من امرأة العزيز بامتناع يوسف، وإبائه الشديد..؟

كلا، لقد جرى منها جهة الباب، ليخرج منه، وجرت خلفه نحو الباب، لئلا يخرج

منه:

﴿وَأَسْبَقَ أَبَاكَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْأَبَائِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥)

أي: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أنها لحقت به، وأمسكته من الخلف، وهو يحاول الهروب منها، والخروج من أبوابها التي غلقتها ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ وهذا أمر طبيعي أن يكون التمزق من موضع هذا الشدّ والجذب، وهو الخلف، وعقب هذا الشدّ والجذب والقدّ للقميص تقع المفاجأة: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾.

فماذا حدث؟ سكت يوسف ﷺ، سترًا عليها، وإيثارًا للسلامة.

وأما هي فكان جوابها حاضرًا، واتهامها للبريء جاهزًا، ودفاعها الزور عن نفسها واضحًا، واستغفالتها لزوجها باديًا، حيث قالت لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾؟ ولم يكن هذا سؤال استفهام، بل سؤال اتهام.

إذ جعلت من نفسها الخصم والحكم، أو القاضي والجلاد؛ لأنها قالت: ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهكذا حكمت عليه بالإبقاء تحت سلطانها، ليكون تحت عينها، ورهن محاولات أخرى منها، كما حكمت بسرعة؛ لتقطع الطريق على زوجها أن يسأل، أو يستفسر، أو يعرف، ولتغلق الباب على يوسف أن ينطق، فيكشف ما حدث.

وأما يوسف فلم يصبر أن يطعن في شرفه، وأن يتهّم بالخيانة لسيّده، والمعصية لخالقه؛ خاصة وأن الدعاة قُدوة، وإذا تحطمت القُدوة تهدمت الدعوة، حيث:

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٦)

أي: ﴿قَالَ﴾ يوسف ﷺ في عبارة موجزة عفيفة ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فقط، ولم يقل غير هذا.

الأمر إذن يحتاج إلى دليل يؤيد أحد الطرفين، وليكن الدليل على يد واحد من أهل امرأة العزيز، ودون ضجة، ودون صخب، ودون دويّ إعلامي:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ولكن بماذا؟ ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

هذا ما يتمنونه أن تكون صادقة في دعواها.

ولكن من باب استكمال الشهادة حتى لا يتهّم بالتحيز، وهو بالفعل متحيز قال:

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧)

وهذا ما لا نتمناه، ولا نرجو أن يكون.

على كل حال لابد من المعاينة، المعاينة التي تبين حقيقة هذا الاتهام، وبراءة هذا أو تلك.

ونظر إلى القميص الذي يرتديه يوسف عليه السلام، ونظر معه الجميع؟ فماذا رأى؟ رأى قميص يوسف قُدَّ وقُطِع من الخلف.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

يعني: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ﴾ قميص يوسف ﴿قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ تبين له، وللعزيز: أنها هي التي راودته عن نفسه، إذن هو صادق، وهي التي دبّرت هذا الاتهام.

فماذا يفعلون إذا؟ لا شيء غير الميل الشديد إلى كتمان الخبر، والعجز الأشد عن مواجهة الجاني بجريمته، حيث صدر الحكم، الذي يبرر الفعل، ويُلتمس لصاحبه العذر.

﴿قَالَ﴾ هذا الشاهد ﴿إِنَّهُ﴾ أي: هذا الذي حدث ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أيها النساء، وبذلك لم يواجه امرأة العزيز صراحة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أي: يا يوسف انس هذا الموضوع، ولا تفتاح به أحداً، واستمر في حياتك في القصر كما أنت، ثم توجه ليوسف ولها قائلاً:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩)

وأما أنت فاستغفري لذنبك، الذي صدر منك على سبيل الخطأ ﴿إِنَّكِ كُنْتِ﴾ ساعتها ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وكأنه قبل عذرها، وزال خطؤها.

وهكذا تمت المعاينة، وصدر الحكم، دون ضجة إعلامية؛ لأن المجرم من «الطبقة الراقية الحاكمة» التي تستر خلف المظاهر، بل تحافظ عليها.

ولو ظهر أن المجرم فيها يوسف، لصدرت الأحكام، ودوّت بها أجهزة الإعلام، ونُفذت القوانين بمنتهى الشدة والصرامة، من باب إظهار العدل، وإنقاذ القانون، واحترام الحقوق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا عشنا مع يوسف هذه اللحظات العصبية، ورأينا كيف أنه اعتصم بالله، وتعالى على الفاحشة، وأظهر الله براءته، وبَيَّن طهر ساحته ﷺ.

ولكن هذه المحنة لم تنته، فيوسف ﷺ لم يخرج من القصر، بناءً على رغبة أهل القصر.

هذه الفضيحة، التي كانت، لم تَخَفْ، ولم يَمُتْ خبرها؟ بل لقد انتشر أمره بين نساء طبقة القصور:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠)

لَمَّا عرفت هؤلاء النسوة بما كان أن ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ وتدعوه، لتنال منه شهوتها؛ لأنه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، قُلْنَ: هذا لا يليق بها، ولا بمركزها الاجتماعي، ولا بمكانة زوجها، و﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لأنها أخطأت في الاختيار، وفي اشتهاى أمرها إذ أنها لو أحسنت اختيار غير غلامها، أو نجحت في إخفاء أمرها ما كانت في ضلال مبين.

إذن: فالمنتقد عندهنَّ ليس الفعل، بل طريقة الفعل. لذلك:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١)

أي: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ امرأة العزيز بانتقاد هؤلاء النسوة لها، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دعوة على طعام ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ مقاعد وثيرة؛ يجلسن عليها، ويسترحن فيها، وقدمت لهنَّ الفاكهة التي تحتاج إلى تقطيع وتقسير ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتستعملها في الفاكهة، ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف ﴿اخرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ادخل عليهن، ﴿فَلَمَّا﴾ دخل و﴿رَأَيْنَهُ﴾ للوهلة الأولى حدث ما يلي:

﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: أعظمته، ودُهِشْنَ لذلك الحُسن الرائق، والجمال الفائق، ودُهِلْنَ ذهولاً شديداً، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جرحن بالسكاكين اللاتي يمسكنها أيديهنَّ من فرط

ذهولهنَّ بجماله، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ فقد رأينا البشر، إنه من أحسن خلق الله، إنه ملك، لا ليس ملكًا فقط، بل ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وكأنَّ هذا اعتراف منهنَّ بعذر امرأة العزيز فيما كان منها. وفهمت ذلك هي من حالهنَّ وذهولهنَّ. ولذلك:

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَفْعَلَنَّهُ لَئِيْلَ السَّاجِنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ (٣٢)

أي: ﴿قَالَتْ﴾ لهن ﴿فَذَلِكُنَّ﴾ يوسف ﴿الَّذِي﴾ عرفتنَّ قصته معي، و﴿لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ كما بلغكنَّ ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ وأبى. ﴿و﴾ إني أعلنها أمامكنَّ وأمامه صريحة لا موارد فيها ﴿لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾ به وأريده منه، ﴿لَيَفْعَلَنَّهُ﴾ مع السراق في السجن، كما سرق قلبي ﴿وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ الأذلاء، فلا يهنأ بعيش ولا منام.

وبهذا التهديد حسمت الموقف، وأعلنت الحرب أمام الجميع.

فماذا كان موقف يوسف ﷺ؟

لم يكن له إلا اللجوء إلى مولاه في هذه الحرب التي لا يملك فيها غير سلاح الإيمان، والتحلي بالصبر في مواجهة المحن. حيث:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣)

يعني: ﴿قَالَ﴾ يوسف، بعد أن سمع الوعيد والتهديد، ورأى الإصرار العنيد، وموقف النسوة العجيب:

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي: حبس حريتي في السجن، والتعذيب فيه أحب إليَّ من الوقوع في المعصية، التي تبعدني عنك، وتحرمني من رحمتك.

ثم بيَّن علَّة هذا الاختيار، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: اصرف يا رب عني كيدهنَّ، فأنا بشر ضعيف، قد أخطئ بحكم بشريتي، ولو حدث ﴿أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ العاصين لله.

ولأن، يوسف عليه السلام كان صادقاً في لجوئه إلى الله، وفي هذا الدعاء، ولأن كل من دعا الله صادقاً استجاب له مولاه، يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٤)

نعم، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ دعاءه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ بصرف رغباتهن عنه، أو إدخال اليأس إلى نفوسهن من الأمل في استجابته، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. ولكن ماذا بعد أن اتضحت براءة يوسف عليه السلام، وبعد أن اتضحت قوة شخصيته، ومدى الصدق في تمسكه بمبادئه، وخوفه من ربه؟

ماذا يكون الحل والسيدة الكبيرة مصرّة على رغبتها، وهو متمسك بإيمانه، والفضيحة صارت تنتشر؟ وكان الحل الذي يسهل على كل الطغاة: هو السجن. يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٣٥)

أي: ﴿ثُمَّ﴾ بعد التفكير في إنقاذ الموقف، والحفاظ على سمعة القصر ﴿بَدَأَ لَهُمْ﴾ الرأي الصائب، فيما يرون وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ﴾ الدالة على صدقه، والعلامات الدالة على قوة موقفه ﴿لِيَسْجُنُنَّهُ﴾ ولا تهتم براءته ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن تهدأ عاصفة سيدة القصر، أو حتى يموت في سجنه، وتموت معه القضية برمتها. ونفذوا ما أرادوا، ودخل يوسف عليه السلام السجن:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦)

ولمّا دخل السجن، وتفرّغ لعبادة ربه، ومساعدة المسجونين، أحبه الجميع، ووثقوا فيه، ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ اقتربا منه، وقصّ عليه كل منهما رؤيا رآها في منامه؛ ليعرف منه تأويلها.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ وكان ساقياً للملك ﴿إِنِّي أُرْنِي﴾ في منامي ﴿أَعَصِرُ خَمْراً﴾ أي: عنباً؛ ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ وكان خبّاز الملك ﴿إِنِّي أُرْنِي﴾ في منامي ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وهو فوق رأسي.

ثم قالوا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبرنا بتفسير ما قلناه لك ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في العلم وفي العمل.

وهنا: ينتهز يوسف ﷺ الفرصة ليُبَيِّنَ في السجن والسجناء العقيدة الصحيحة، التي يدين بها، ويدعو إليها، حيث:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧)

نعم، ﴿قَالَ﴾ يوسف ﷺ لهما، وهما في شوق لسماعه كسباً لثقتهما، وتديلاً على قدرته على تأويل رؤياهما ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ﴾ أي: من رزق الله لكما ﴿إِلَّا نَبَأُكُمَا﴾ أي: أخبرتكما به نوعاً ووصفاً ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾.

وكانهما قالاً: مَنْ علمك هذا؟ قال: ﴿ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وكانهما قالاً: من ربك هذا؟ وكأنه قال: ربي الله.

ثم أضاف قائلاً: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

ثم واصل قائلاً، وهما يستمعان إليه في لهفة وشوق:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨)

أي: بعد أن تركت دون أن أعتنق ملة الكافرين ﴿وَاتَّبَعْتُ﴾ واعتنقت ﴿مِلَّةَ﴾ أي: دين ﴿آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وهي توحيد الله؛ حيث ﴿مَا

كَانَ ﴿يَنْبَغِي﴾ ﴿لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولا ينبغي لأحد من الخلق كذلك.

﴿ذَلِكَ﴾ الدين ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ حيث نعبد ويعبدون الله وحده، فننال وينالون رضاه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ربهم الذي خلقهم على إنعامه عليهم.

وبعد أن رَسَخَ هذه الأمور الإيمانية في قلوبهم نادى عقولهم قائلاً:

﴿يَصْلَحِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٣٩﴾

يعني: ﴿يَصْلَحِي السِّجْنِ﴾ أخبراني بربكما، أيكون لهذا الكون رب واحد قهار قادر، أم أرباب متعارضون متفرقون؟ أيهما خير لهذا الكون، ومن فيه؟ ثم أضرب عن الإجابة، وواصل قائلاً:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

أي: يا صاحبي السجن ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أنتم وأقوامكم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غير الله ﴿إِلَّا أَسْمَاءُ﴾ لا مسميات ولا حقيقة لها ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ من عندكم، واختلقتموها ﴿أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ وهي معبودات وهمية ﴿مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: دليل.

والصواب في الأمر أنه ﴿إِنْ الْحُكْمُ﴾ والحاكمية والعبادة، لا تكون ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذي خلق الجميع، ورزق الجميع.

وقد ﴿أَمَرَ﴾ سبحانه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وحده.

و﴿ذَلِكَ﴾ هو ﴿الَّذِينَ الْقَيِّمُ﴾ الثابت، الذي دلَّت عليه الشواهد والبراهين، والذي أدعوكما إليه، وهذا أمر واضح غاية الوضوح، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

ثم قال لهما: بعد هذه الجولة الدعوية مفسراً رؤياهما:

﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ
فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾
﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ﴾ هذا تفسير رؤياكما:

﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ هكذا دون تحديد له، فيخرج من السجن، ويعود لعمله ﴿فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي: يصير مرة أخرى ساقى الملك، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ هكذا دون تحديد له، فيقتل، ويصلب، ﴿فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾، وهنا قالوا له: «ما رأينا شيئاً»، وذلك من هول ما قال لأحدهما.

قال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

ثم تحول إلى أحدهما:

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾ من القتل ﴿مِنْهُمَا﴾ وسيخرج من السجن، وسيعود إلى عمله في بلاط الملك ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر حكايتي، وقصتي التي دخلت بها السجن ظلماً، حتى يعرف الملك براءتي، وأخرج من هذا السجن.

ويتحقق تفسير يوسف للرؤيا، ويخرج ساقى الملك من السجن، ويعود لعمله عند الملك، ولكن ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ﴾ يوسف وقضيته عند ربه ﴿فَلَبِثَ﴾ أي: مكث يوسف ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ نتيجة لذلك ﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ محبوساً.

ومضت الأيام، ويوسف ﴿فِي السِّجْنِ﴾ كما هو:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءُوسِهِ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا
تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ورأى الملك رؤيا فاجتمع الملأ، وهم المقرَّبون من الملك، والعرَّافون، والمنجِّمون، لتفسير هذه الرؤيا، ولكنَّهم لم يعرفوا لها تأويلاً، ولذلك، وبعد تفكير طويل منهم:

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالَمِينَ﴾ (٤٤)

أي: ﴿قَالُوا﴾ للملك هذه ليست رؤيا، ولكنها ﴿أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾ أي: أخلط وأباطيل من أحاديث النفس، ووسوسة الشيطان ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ﴾ هذه ﴿الْأَحْلَمِ بِعَالَمِينَ﴾ ولو كانت رؤيا لفسرناها لك.

ولم يسترح الملك لكلامهم، وظلَّ في حيرته، وشعر بذلك من حوله، ومنهم ساقى الملك، فتذكر يوسف عليه السلام الذي كان معه في السجن:

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥)

أي: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من صاحبي يوسف عليه السلام في السجن، والذي كان قد نسي أمر يوسف، ﴿وَادَّكَرَ﴾ أي: تذكر الآن ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدة مضت نسي فيها أمر يوسف، قال: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أعرف من ينَّبئكم ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتفسير ما رآه الملك، وعجزتم عن تفسيره، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إليه، ولم يصرَّح باسمه، حتى يكون صاحب السبق عند الملك.

وخرج هذا الساقى من عند الملك، وذهب إلى السجن الذي فيه يوسف، ودخل عليه وقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦)

أي: قصَّ عليه رؤيا الملك، وطلب منه تفسيرها، ثم قال: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أي: الملك وحاشيته بما تقول ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الحق في أمر هذه الرؤيا، التي وصفوها بأنها ﴿أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾ [يوسف: ٤٤]، وكذلك: يعلمون فضلك، وعلمك، فيعرفوا قصتك، وأنك سُجنت زورًا.

ودون تباطؤ، أو مساومة، أو عتاب، أو اهتمام بقضيته يفسر يوسف عليه السلام للفتى رؤيا الملك، بتفسير عجيب غريب:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾
 ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ
 ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾
 ﴿٤٩﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ له ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ ازرعوا الأرض بأنواع المزروعات، سبع سنين متوالية، ﴿دَأَبًا﴾ أي: بجهد واهتمام، ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ من هذه المزروعات ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ ليظل رصيذا سليما محفوظا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ منه فكلوه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد هذه السنوات السبع الطيبة ﴿سَبْعٌ﴾ سنوات ﴿شِدَادٌ﴾ عِجَاف، لا تنبت الأرض فيهن شيئا، ولذلك هذه السبع العجاف ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أهل البلاد، فيهن ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ مما كان محفوظا، ولا يبقى عندكم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا﴾ كنتم ﴿تَحْصِنُونَ﴾ أي: تتركونه في الحصون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد هذه السنوات الأربع عشرة، على البلاد وأهلها ﴿عَامٌ فِيهِ﴾ الرخاء وسعة الرزق، ولذلك ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ بعد الشدة ﴿وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ أي: يكثر الخير ويتنعمون به، ويتفكهون فيه.

وذهب الساقى بهذا التفسير للملك، لا بل بهذا التخطيط لإدارة الأزمة التي سوف تمر بالبلاد، والتي رآها الملك في منامه، وتعجب الجميع:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ الْيَسْوَءِ الَّذِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَافٍ عَلِيمٌ﴾
 ﴿٥٠﴾

أي: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ بعد أن سمع هذا التفسير ﴿أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟﴾ لأراه بنفسى، وأسمع تأويله بأذني، وأختبر درجة علمه، وذهب رسول الملك ببشرى الخروج من السجن ليوسف عليه السلام:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ وبلغه أمر الملك لم يهرول، ولم يسارع في الخروج، بل ﴿قَالَ﴾ لهذا الرسول في أناة وثقة، وصبر ويقين، وحرص على سلامة القدوة ومسيرة الدعوة، وإظهار الحق ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ أي: سيدك ومليكك ﴿فَسَأَلَهُ﴾ أولا

﴿مَا بَالُ الْيَسَوْفَ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: ما خبر هؤلاء النسوة اللاتي قطعن أيديهن بالسكاكين في بيت العزيز ذات يوم؛ لأنني أريد أن تظهر الحقيقة قبل خروجي من السجن، وتُضح براءتي، وأنا بعيد عن مجالس التحقيق.

﴿إِنَّ رَبِّي يَكِيدُهُنَّ عِلْمٌ﴾ وهو الذي صرف كيدهن عني، وهو الذي سوف يظهر براءتي.

وهنا: فتح الملك دفاتر هذه القضية، التي تناساها الجميع، وأحضر النسوة وسألهن:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الملك، أو المحقق ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ما قولكن في حقيقة موضوع مراودة يوسف؟ ﴿قُلْنَ﴾ جميعاً، ولم تشذ واحدة منهن ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ معاذ الله، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ قلن صراحة، و ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ وقد تابت إلى الله من ذنبها ﴿الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ وظهر واضحاً، ثم قالت: ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ اعترفت المرأة بنفسها، والاعتراف - كما يقولون - سيد الأدلة، وبذلك: ثبت صدق يوسف في طهارته وبرائه، حقاً ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

ثم قالت: قلت ﴿ذَلِكَ﴾ الاعتراف ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: لم أذكره بسوء، وهو غائب، ثم قالت: وقد تحولت - بفضل الله، وطهارة يوسف ﷺ - من فاجرة أولاً، إلى مسلمة ثانياً، ثم إلى داعية ثالثاً: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ﴾ بل لا ينفعهم أبداً كيدهم الذي يكيدونه، وهذا كلام لا يصدر إلا من قلب دخله الإيمان، وسكنه النور الإلهي.

وهذا الاعتراف: لم تكتف به امرأة العزيز، بل أرادت أن تتخلص من كل أوزار ماضيها، وقد أجرى الله على لسانها بلاغة الدعوة إلى الله تعالى، حيث قالت:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

أي: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ مما أرادت وتمنت من سوء؛ حيث ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فمن الناس من يطيعها، ومنهم من يقاوم انحرافها ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا نفساً رحمها ربي وطهرها، فصارت مطمئنة لا تأمر صاحبها إلا بخير، كنفس يوسف عليه السلام.

ثم أعلنت توبتها، وطلبت المغفرة من ربها قائلة: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أطمع في عفوه وغفرانه ورحمته.

وعرف الملك، والحاشية، والدنيا كلها أن يوسف عليه السلام القابع في السجن بريء، لم يقترب ذنباً، ولم يرتكب خطيئة، وهو يوسف الذي فسر الرؤيا، وفيها التخطيط، الذي فسر به الرؤيا، هنا:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ أَسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤)

أي: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ وقد تعرّف على شخص طاهر أمين عاقل في مملكته ﴿أَتُونِي بِهِ﴾ لا لأسأله عن الرؤيا، ولا لأحقق معه في قضية امرأة العزيز، ولكن ﴿أَسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي﴾ واتخذه مستشاراً لمملكتي، وجاء يوسف ورآه الملك.

﴿قَالَ﴾ الملك ليوسف عليه السلام ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾ بعد ما عرفناه عنك ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ من الممكن أن تتخذ ما شئت من القرارات، وكذلك أنت مؤتمن، لا مراجع لك، ولا مُعَقَّب عليك.

وكانت هذه بداية الابتلاء بالرخاء ليوسف عليه السلام، بعد انتهاء الابتلاء بالشدة ساعة خروجه من السجن.

ولأن يوسف يستشعر الأزمة القادمة على مصر، ويستشعر أيضاً مسؤوليته على إدارتها، وقدرته - بعون الله - على إخراج البلاد سالمة منها، فقد:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٥)

أي: ﴿قَالَ﴾ للملك ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ويبدو أنها كانت خزائن أرض الدنيا كلها، حيث ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أمين على ما في الخزائن، عليم بوجوه التصرف فيها.

وأجابه الملك على الفور، وأصبح يوسف عليه السلام وزير الخزانة:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

أي: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ وبعد المحن الطويلة الثقيلة ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا﴾ يتصرف فيها ويدبر شؤونها وينتقل في أرجائها، ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ فالثقة في عدالته متوفرة، واليقين في إخلاصه موجود.
وهكذا ﴿نُصِيبُ﴾ أي: نحض ونعطي ﴿بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ من عبادنا، والقاعدة الربانية، والسنة الربانية: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
وليس هذا فقط، بل كذلك:

﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧)

نعم أجر الآخرة ليوسف عليه السلام، ومن كان على طريقه من المؤمنين المتقين: أعظم وأفضل من كل أجر وفضل رأوه - أو يرونه - في الدنيا.
ويتسلم يوسف عليه السلام مقاليد الوزارة، ويدبر شؤونها وتبدأ الأزمة، ويدبرها يوسف بحكمته، ويتسامع أهل البلاد المجاورة عن الخير - في بلاد مصر - خلال هذه الأزمة التي ملأت شهرتها الآفاق، ويحضر الناس إلى مصر من كل البلاد طلباً للغذاء:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨)

أي: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ بسبب هذه الأزمة من بلاد كنعان، ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ طلباً للغذاء، مثل باقي الناس ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف عليه السلام ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لا يعرفونه.

وحقق لهم مطالبهم، وجهاز لهم جهازهم، وسألهم عن أحوالهم، واستخرج منهم بعض أخبارهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ إِلَّا تَرَوْتَنِي أَنِّي أُوْفِي الْكَفِيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٥٩)

أي: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ﴾ لهم بعد أن أكرمهم ﴿اتُّنُونِي يَاخَ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ الذي حدَّثتموني عنه، في المرة القادمة، لأراه وأعرف صدقكم.
ثم قال لهم مرغَّبًا: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ﴾ الذي ترغبون فيه ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ لكم فيما تستريحون فيه من الأماكن؟
ثم قال لهم - كذلك - مخوَّفًا:

﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٠)
أي: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ إن لم يكن معكم في المرة القادمة: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾، ولا بيع معكم ولا شراء منكم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ كذلك ولا تقربوا بلادنا.
ونظرًا لشدة حاجتهم إلى الطعام من مصر لم يرفضوا، بل:

﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١)
يعني: سنحاول مع أبيه، ونقنعه أن يرسله معنا، وسيكون ما تريد، وسيحضر معنا في المرة القادمة.
وإغراء لهم على العودة ففكر في شيء:

﴿وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا يَضَعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢)

أي: ﴿وَقَالَ﴾ يوسف لرجاله: ﴿اجْعَلُوا يَضَعَهُمْ﴾ أعيدوا لهم بضاعتهم التي أحضروها معهم ليشتروا بها منًا، وضعوها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ دون أن يعرفوا ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ أي: يرونها ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ أي: عادوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾، فيعرفون أن ضامنا كان هدية لهم بلا ثمن ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بذلك ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلينا بأخيهم.

وتم ما أمر به يوسف ﷺ في أمر البضاعة، وعاد إخوة يوسف بالطعام إلى بلادهم، وإلى أبيهم:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَنَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ (٦٣)

أي: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا﴾ لأبيهم، ﴿يَتَّابَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْدُ﴾ لقد أحضرنا الطعام هذه المرة، ولكن قد تنبه علينا أنه لا طعام لنا بعد ذلك إلا إذا كان معنا أخونا الذي تركناه معك، والذي لم يأت معنا هذه المرة، لذلك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ في المرة القادمة ﴿أَخَانَا نَكْتَلُ﴾ وهو معنا، ثم نأتي بالطعام ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أي أذى أو مكروه.

أعاد هذا الطلب على هذا الوالد.. ذكريات يوسف، الذي قالوا له عنه ذات يوم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]!! ولذلك:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم إنكم قلتم في يوسف ﷺ مثل ذلك من قبل، ولم توفوا بوعدكم ف﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فيضيع منكم أيضًا ﴿كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾؟

فدعوني ودعوا لي ولدي.. لا تكلم لا تحفظون أحدًا، ولكن: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ويبدو أنهم عرفوا أن المحاولة مع أبيهم لن تنجح، إذن فليستريحوا من عناء السفر، ثم - بعد ذلك - يفتحون متاعهم، واستراحوا، ولكن:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا بَغِيَٰ هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْدٌ يَسِيرٌ﴾

أي: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ ما هذا الكرم من عزيز مصر، طعام بلا ثمن؟ إنه رجل كريم، وتوجهوا إلى أبيهم بهذه المفاجأة السارة، و﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا بَغِيَٰ﴾ ماذا نريد أكثر من هذا؟ ﴿هَذِهِ بِضْعَتُنَا﴾ انظر إليها، لقد ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ من هذا الرجل الكريم.

وحاولوا مرة أخرى معه بالنسبة لأخيهم فقالوا: ما المانع أن ترسل معنا أخانا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نُحْضِرْ لَهُمُ الطَّعَامَ مِنْ مِصْرَ ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانًا﴾ كما وعدناك، ولا خطر عليه، كما رأيت من كرم أهل مصر ﴿وَنَزِدَادُ﴾ بوجوده معنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ من الطعام.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ذلك يا أبانا أمر يسير، فلا تمانع فيه.

وأمام هذه المحاولات: استسلم الرجل الكبير على كُرْهٍ، ولكنه اشترط عليهم:

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٦)

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إلى مصر ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: تقسمون لي بالله، وتعطوني عهدًا على أنفسكم ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ﴾ أي: تحافظون على ولدي، وتحضرونه لي ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا إذا غلبتم على أمركم، وخرج الأمر عن إرادتكم، وهنا سارعوا وأقسموا وآتوه موثقهم.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ لم يكتف بذلك، بل ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ثم وجه لهم النصيحة، ووصاهم بحنان الوالد، وخبرة المجرب، مفوضًا أمره وأمرهم لله الواحد القهار:

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧)

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ من أبوابها ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ بعضكم من باب، وبعضكم من آخر أخذًا بالأسباب، حيث إن النافع والضار هو الله ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إن أراد لكم شيئًا غير ما أريد أنا ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولذلك فالإيمان يقتضي التفويض لله.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وفوضت أمري، وأمر يوسف، وأمر ابني هذا، وأمركم جميعًا.

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فتوكلوا عليه.

ولَمَّا جَاءَ مَوْعِدَ السَّفَرِ سَافِرِ إِخْوَةَ يُوسُفَ ۖ مِنْ عِنْدَ أَبِيهِمْ، وَمَعَهُمْ أَخُوهُمْ وَذَهَبُوا إِلَى مِصْرَ، وَدَخَلُوا مِصْرَ، وَنَفَذُوا وَصِيَّةَ أَبِيهِمْ:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَتْ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ﴾ لَمَّا نَفَذُوا وَصِيَّةَ أَبِيهِمْ فِي دُخُولِ مِصْرَ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ، ﴿مَا كَانَتْ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿إِلَّا حَاجَةٌ﴾ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ رَغْبَةً ﴿فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وَصِيَّةَ وَصَاها لَهُمْ؛ لَخَوْفِهِ عَلَيْهِمْ، ﴿وَإِنَّهُ﴾ عَلَى كُلِّ حَالٍ ﴿لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ، وَوُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لَهُ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَلِذَلِكَ: فَأَكْثَرُهُمْ لَا يَسْتَسْلِمُونَ رَاضِينَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يَفُوضُونَ أُمُورَهُمْ لِلَّهِ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أي: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ هَذِهِ الْمَرَّةُ ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ وَكَانَ مَعَهُمْ أَخُوهُمْ الَّذِي طَلَبَ يُوسُفَ ۖ رُؤْيَاهُ ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ اخْتَلَىٰ يُونُسَ بِأَخِيهِ، وَعَرَفَهُ بِنَفْسِهِ ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يُونُسَ ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أَي: فَلَا تَحْزَنْ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بِنَا - أَنْتَ وَأَنَا - فِيمَا مَضَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا، وَجَمَعَنَا عَلَى خَيْرٍ.

ويبدو أَنَّهُ أَمَرَهُ بِكُتْمَانِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ عَنْهُمْ، كَمَا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَيْهِمْ لِيَبْقِيَهُ عِنْدَهُ مَعَزَاً مَكْرَمًا عِنْدَهُ، لَغَرَضٍ يَرِيدُهُ، وَاتَّفَقَا عَلَى كُتْمَانِ ذَلِكَ أَيْضًا، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾

أي: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ أَعْطَاهُمْ يُونُسَ ۖ بِضَاعَتَهُمْ، وَأَخْفَىٰ فِيهَا السِّقَايَةَ، وَهِيَ صَوَاعُ الْمَلِكِ، وَجَعَلَهَا ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أَي: مَتَاعِ أَخِيهِ.

﴿ثُمَّ أَذِّنْ مُّؤَذِّنٌ آيَتَهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾ ثم تظاهر أتباع يوسف ﷺ أنهم يبحثون عنها، ثم اتهموا العير كلها، أي: أصحاب الجمال كلهم بالسرقة.
وفزع إخوة يوسف:

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ (٧١)

أي: ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ اقرب إخوة يوسف من أتباع يوسف، وسألوهم قائلين ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ أي: ما الذي ضاع؟

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢)
﴿قَالُوا﴾ أي: أجاب رئيس هؤلاء الأتباع قائلاً: ﴿نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ أي: الذي ضاع هو صواع الملك، الذي يشرب به، والذي نكيل به الطعام، وعلى كل حال ﴿لِمَنْ جَاءَ بِهِ﴾ ورّده إلينا مكافأة كبرى، وهي ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام، ثم قال هذا الرئيس: ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل بدفع هذه المكافأة.
واستنكر إخوة يوسف ﷺ هذا الحدث:

﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾ (٧٣)
أي: ﴿قَالُوا﴾ وأقسموا ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أنا جئنا لطلب الطعام فقط، و ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ بسرقة أو غيرها ﴿وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾ وما عُرف عنا ذلك، ولا ينبغي لنا أبداً.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤)

أي: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ ما جزاء هذا السارق، حتى ﴿إِنْ﴾ كان منكم أنتم، وظهر أنكم ﴿كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في كلامكم هذا؟

ولأنَّ إخوة يوسف واثقون من موقفهم، ومن براءتهم، فقد ردّوا عليه سريعاً:

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ أُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥)

أي: ﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿جَزَؤُهُ﴾ أي: جزء السارق في شريعتنا، أن يؤخذ ﴿مَنْ وَجِدَ﴾ الشيء المسروق ﴿فِي رَحْلِهِ﴾ وبالتالي ﴿فَهُوَ جَزَؤُهُ﴾ أي: عقابه.

﴿كَذَلِكَ﴾ عندنا ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: السارقين، الذين يظلمون بسرقتهم غيرهم.

ووافق يوسف، ومن معه على هذا الجزاء، وأمر ببدأ التفتيش في الأمتعة عن صواع الملك:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

أي: ﴿فَبَدَأَ﴾ بدأ المفتش في البحث ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ أولاً قبل البحث في ﴿وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ حتى لا يشير شكوكهم أن الأمر مدبر ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية ﴿مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي: من متاعه، وبذلك ينقذ الحكم بأخذ أخيه، ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهكذا تمت حيلة يوسف لأخذ أخيه منهم دون أن يعرفوا شيئاً.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في حكم ملك مصر، إلا بمشيئة الله تعالى.

﴿نَرْفَعُ﴾ في العلم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ عالية ﴿مَنْ نَّشَاءُ﴾ من عبادنا، كما رفعنا يوسف ﷺ.

ولكن، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هم دونه في العلم، وهو الله تعالى.

نجح يوسف ﷺ: في أن يأخذ أخاه منهم بهذه الحيلة التي هداه الله إليها، فماذا فعل إخوة يوسف الذين أخذ عليهم أبوهم الموائيق بإعادة هذا الابن إليه..؟

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُّوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

أي: لما أخرج المفتش صواع الملك من رحل أخيه، نكسوا رؤوسهم خجلاً من الفضيحة، و﴿قَالُوا﴾ تبرئة لساحتهم: ﴿إِنْ يَسْرِقُ﴾ هذا الأخ ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ﴾ من أمه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من زمن مضى.

ولأن يوسف عليه السلام لم يسرق، فقد قال على الفور ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ أي: كاذبون، ولكن لم ينطق بها بل ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ وكتمها ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ لئلا يعرفوه.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أحاكم، ولكن لنا الظاهر الذي وجدناه. وحاول الإخوة محاولة لفك أسر أخيه، حيث:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨)

أي: ﴿إِنَّ﴾ لهذا الأخ ﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يحبه، وسوف يحزن كثيراً لفراقه، وقد أخذ علينا العهد أن نرده إليه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا﴾ وضعه ﴿مَكَانَهُ﴾ عندك، في دين الملك، ولا تَرُدُّ لنا هذا الطلب ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في أفعالك وأقوالك، فأحسن إلينا.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ﴾ (٧٩)

يعني: أجب على اقتراحهم ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ نعوذ بالله، من ﴿أَنْ نَأْخُذَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ﴾، فهو لم يقل: «إلا من سرق» لأنه يعرف أن أخاه لم يسرق.

ثم قال: ولو أخذنا غيره ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ﴾ حيث نأخذ بريئاً، وهذا ظلم، ونحن لا نحب الظلم ولا الظالمين.

وبهذا عرفوا أنه لا فائدة من هذه المحاولات، ويئسوا من أخذ أخيه معهم:

﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ

أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَيْ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

أي: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ يئسوا من أخذ أخيههم ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي: جلسوا وحدهم يتشاورون ويتناجون في هذا الموضوع، وكيف يتصرفون.

وهنا ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: أنسيتم ﴿أَنكُ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا﴾ عهداً ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ في أخيكم هذا أن تروده له؟ ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أنسيتم تفريطكم في أخيكم يوسف من قبل أيضاً؟

إني أخجل من مقابلة أبي، ولذلك ﴿فَلَنَ أَبْرِحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن أغادر أرض مصر، وسأظلُّ هنا ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَيْ﴾ بالعودة راضياً عني ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بما يريد، بالخروج أو بالموت أو بتخليص أخي هذا ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ حيث لا يحكم إلا بالعدل، وأنا راضٍ بحكمه سبحانه. وهذا ما يخصني، أما أنتم:

﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨١﴾

يعني: ﴿أَرْجِعُوا﴾ عودوا أنتم ﴿إِلَىٰ آبَائِكُمْ﴾ ودافعوا عن أنفسكم، وأزيلوا تهمة الإهمال عنكم ﴿فَقُولُوا﴾ لأبيكم ﴿يَتَّابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ﴾ صواع الملك، وأخذوه في دين الملك، ونحن لا ننتهمه ولا نبرئه ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ ورأينا حين استخرجوا المسروق من متاعه، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ المخبأ هذا، وما سوف يحدث فيه، حيث أعطيناك العهد ﴿حَافِظِينَ﴾ أي: عالمين به، وإلا لما أخذناه.

وعادوا إلى آبائهم وأخبروه الخبر، وقالوا ما قاله أخوهم وأضافوا - كذلك - قائلين لأبيهم:

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾
أي: ﴿وَسَلِّ﴾ إن كنت لا تصدقنا فيما قلناه، فاسأل أهل ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا

فِيهَا ﴿وَهِيَ مِصْرُ﴾ وَالْعِيرَ ﴿وَاسْأَلْ كَذَلِكَ الْقَافِلَةَ﴾ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴿مِنْ مِصْرٍ﴾
 ﴿وَأِنَّا﴾ عَلَى آيَةٍ حَالٍ ﴿لَصَدِيقُونَ﴾ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ شَأْنِ أَخِينَا.
 وَفُجِعَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذَا الْخَبَرِ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَصْدُقْ مَا قَالُوهُ، حَيْثُ:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣)

أَي: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ لَيْسَ الْأَمْرُ - فِيمَا اعْتَقَدَ - كَمَا تَقُولُونَ، ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ يَعْنِي: زَيَّنَتْ ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ غَيْرَ مَا تَقُولُونَ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أَتَحْلِي بِهِ، وَأُعْزِّي نَفْسِي مَعَهُ، لِفَقْدِ أَوْلَادِي الثَّلَاثَةِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بِكَرَمِهِ وَقُدْرَتِهِ.
 ﴿إِنَّهُ﴾ سُبْحَانَهُ ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بِحَالِي ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِيمَا قَدَّرَهُ لِي وَأَوْلَادِي.
 وَلَمْ يَقُلْ غَيْرَ هَذَا:

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ وَابْتَغَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤)

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يَعْنِي: أَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَسَكَتَ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْحَدِيثِ مَعَهُمْ ﴿وَقَالَ﴾ شَاكِيًا إِلَى رَبِّهِ ﴿يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ﴾ أَي: يَا شِدَّةَ حَزَنِي عَلَيْهِ، وَصَارَ يَبْكِي، بَلْ زَادَ بَكَاءَهُ فِي صَمْتٍ، حَتَّى ضَعُفَ بَصَرُهُ ﴿وَابْتَغَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ الْمَكْتُومِ، الْمُؤَلَمِ ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ لِعِظَتِهِ، لَا يَشْكُوهُ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ.

وَلَمَّا رَأَى أَوْلَادَهُ فِي هَذَا الْحَالِ:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (٨٥)

أَي: ﴿قَالُوا﴾ لِأَبِيهِمْ.. ﴿تَاللَّهِ﴾ أَي: وَاللَّهِ ﴿تَفْتَوُا﴾ أَي: لَا تَزَالُ ﴿تَذْكُرُ يُوْسُفَ﴾ وَتَبْكِي عَلَيْهِ، وَتَتَوَجَّعُ مِنْ أَجْلِهِ ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أَي: ضَعِيفًا عَلِيلًا

﴿أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ في عداد الموتى، إن بقيت على هذا الحال.

يعني: خفف عن نفسك، وهون عليك أمرك يا أبانا.

ولأن هذا البكاء من الفطرة، ولأن هذا الحزن غريزة، ولأن يعقوب عليه السلام لم يجزع، ولم يتجه بشكواه لأحد:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)

﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ﴾ على ما أصابني ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ فقط، لا إلى أحد حتى يبيته، ويحكيه للغير ﴿وَحُرِّيَّ﴾ على ما أصابني ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ فقط، لا إلى أحد من خلقه، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ رحمة الله بي ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولا أيأس من رحمته أبداً. ولذلك أقول لكم:

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)

أي: ﴿يَبْنِي﴾ لا تفقدوا الأمل في رحمة الله بنا، ولا تقعدوا عن البحث عن أخويكما، بل ﴿أَذْهَبُوا﴾ في البلاد ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ الأخبار ﴿مِنْ﴾ الناس، عن ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ عسى أن تجداهما، ﴿وَلَا تَأْتَسُوا﴾ خلال هذا البحث عنهما ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي: من رحمته وفرجه، حيث ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وأنتم بفضل الله مؤمنين، واثقين في رحمة الله.

وأطاع الأولاد أباهم وخرجوا من عنده من أرض كنعان بالشام، وذهبوا إلى مصر حيث تركوا أخاهم، ليأتوا بالطعام، وليحاولوا استخراج أخيهم وإعادته معهم، وذهبوا إلى عزيز مصر:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِضِغَعَةٍ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨)

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾ على عزيز مصر ﴿قَالُوا﴾ له: بلغة الضعف ﴿يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾

مَسَّنَا ﴿ وَنَزَلَ بِنَا ﴾ وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴿ أَي: الضرر من الجوع والفقر ﴾ وَجِئْنَا ﴿ إِلَيْكَ هَذِهِ الْمَرَّةَ ﴾ بِبِضْعَةٍ ﴿ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ مُرْجَلَةٍ ﴿ رَدِيَّةٍ نَوْعًا مَا، حَيْث لَا نَمْلِكُ غَيْرَهَا، وَلَا يَرِغِبُ فِيهَا أَحَدٌ، فَلَا تَرَدُّنَا بِهَا، وَتَكْرَمُ عَلَيْنَا ﴾ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴿ كَعَهْدِنَا بِكَ ﴾ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴿ بِإِطْلَاقِ سِرَاحِ أَخِينَا، لِيَعُودَ مَعَنَا، وَسَيَجْزِيكَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا، حَيْث: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ خَيْرًا مِنْ أَمْثَالِكَ.

ولأنَّ حديثهم بدأ يكتسي بنبرة الإيمان، ولأنه قد تغيَّر وضعهم، وصلاح حالهم، ولأنَّ إخفاء شخصيته عنهم أتى ثماره، ولم يعد له مبرر، فقد بدأ يكشف لهم عن نفسه، حيث:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ﴿٨٩﴾

أي: ﴿ قَالَ ﴾ لهم يوسف ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ ﴾ أي: أدركتم وفهمتم، قبح ﴿ مَا فَعَلْتُمْ ﴾ قديمًا ﴿ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ من الأذى ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي: وقت جاهليتكم ومعصيتكم وبعدكم عن الطاعة.

وذهلوا للوهلة الأولى، وتعجبوا من أنفسهم، كيف لم يعرفوه، وهم يترددون عليه منذ فترة، ثم نطقوا:

﴿ قَالُوا أَيْ تَاكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٩٠﴾

أي: ﴿ قَالُوا ﴾ له في استعظام من هول المفاجأة ﴿ أَيْ تَاكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ ﴾ أخونا؟ ﴿ قَالَ ﴾ يوسف، نعم ﴿ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ ولم يعاتب، بل ذكر إنعام الله، وفضله قائلاً: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بكرمه وحفظنا.

حيث: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ﴾ الله بترك المعصية، وفعل الطاعة ﴿ وَيَصْبِرْ ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعة، وعلى بلاء الله وقدره وقضائه، فهو من المحسنين، ولا يضيع الله أجره وجزاء تقواه وصبره، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ كَرِيمٌ ﴾ لَا يُضِيعُ ﴿ أَبَدًا ﴾ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ.

وفرَّح إخوته وعرفوا فضل الله على مَن يتَّقِ ويصبر حقًا، ثم:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ (٩١)
 أي: ﴿قَالُوا﴾ له وأقسموا ﴿تَاللَّهِ﴾ يا يوسف ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ﴾ أي: فضلك
 ﴿اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالصبر، والعقل، والصفح، والحلم، وغير ذلك.
 ثم اعترفوا بذنبهم له قائلين: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ في حقك وحق أخيك،
 وحق الله تعالى.

وبأدب الثبوة، وعفة اللسان، وسماحة الأنبياء:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢)
 ﴿قَالَ﴾ يوسف ﷺ لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا عتاب، ولا ملامة، ولا
 مؤاخذه عليكم ﴿الْيَوْمَ﴾ وغير اليوم.
 ثم دعا لهم بالمغفرة قائلًا: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بإذنه تعالى ما سبق منكم،
 ويرحمكم بعفوه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فلا تبتسوا أبدًا.
 ثم سألهم عن أبيهم فقالوا: ﴿أَبْيَضْتُ بَيْنَهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤] عليك، قال
 لهم:

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ
 أَجْمَعِينَ﴾ (٩٣)

أي: ﴿أَذْهَبُوا﴾ إلى أبي ﴿بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ يرتد إليه
 بصره، و﴿يَأْتِ﴾ إليَّ ﴿بَصِيرًا﴾ بإذن الله، ﴿و﴾ أيضًا ﴿أْتُونِي﴾ أي: أحضروا
 معكم أهلکم، أي: آل يعقوب ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

وأخذوا القميص من يوسف ﷺ، وخرجوا من عنده متجهين إلى أبيهم وأهلهم
 ببلادهم:

﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (٩٤)
 يعني: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ﴾ أي: لما خرجت العير من ديار مصر ﴿قَالَ﴾

﴿أَبُوهُمْ﴾ وهو في الشام لمن حوله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ الطيبة فيما يهبُ عليَّ من الرياح. وهي حقيقة ﴿لَوْلَا أَن تَفْنَدُون﴾ كلامي ولا تصدقونه.

وأنكر - بالفعل - من حوله هذا الكلام:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (٩٥)

أي: ﴿قَالُوا﴾ له: والله إنك تهذي من أوهامك القديمة، بسبب حبك ليوسف. ولم يمض وقت طويل على هذا الكلام: حتى وصلت العير من مصر، وجاء إخوة يوسف، ومعهم القميص:

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

أي: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو حامل القميص ﴿أَلْقَنَهُ﴾ أي: بسطه ونشره ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ كما أمر يوسف ﷺ ﴿فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا﴾ عاد - بقدرة الله - إليه بصره.

وهنا: ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﷺ لأولاده ولمن حوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ﴾ سابقًا ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ رحمة لي ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولا أياس من رحمته أبدًا؟ وانتهر أولاده غمرة الفرح، وهم يشعرون بالذنب، ويبدون الندم، حيث:

﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧)

أي: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ سل ربك أن يغفر لنا ذنوبنا التي ارتكبتها في حقك وحق أخويننا ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ أي: اعترفنا بخطايانا، وتبنا عنها، وندمنا عليها.

ماذا قال لهم يعقوب ﷺ؟

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٨)

يعني: لم يجبه فورًا إلى ما طلبوا، ولكن قال لهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾

وَأَخَّرَ ذَلِكَ لِيَعْرِفَ لِيَعْرِفَ صَدَقَ تَوْبَتُهُمْ، ثُمَّ طَمَعَهُمْ فِي عَفْوِ اللَّهِ قَائِلًا: ﴿إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ثم قالوا لأبيهم وأهليهم رغبة يوسف عليه السلام في أن يذهبوا جميعًا إليه بمصر، وخرج الجميع من بلاد الشام، ووصلوا إلى مصر.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (٩٩)

أي: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى﴾ عزيز مصر، وهو ﴿يُوسُفُ﴾ عليه السلام: استقبلهم استقبالا حافلا، ثم ﴿ءَاوَى﴾ أي: ضم ﴿إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ﴾ إعلاءً لشأنهما، ورفعاً لقدرهما، وبراً بهما، ﴿وَقَالَ﴾ لجميع آل يعقوب ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ أي: أقيموا بها ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من القحط والجوع والظلم.

﴿وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَوَائِلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠٠)

وعقد يوسف اجتماعاً عاماً يحتفل فيه بقدوم آل يعقوب إلى مصر، وفي هذا الاجتماع: ﴿رَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أجلسهما في مكان بارز، على سرير الملك، وهو أرفع مكان في المملكة، تكريماً لهما، ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: خضع له الجميع، وحيوه، وهم أبواه، وإخوته الأحد عشر.

وهنا قال يوسف عليه السلام لأبيه: ﴿يَتَابَتِ هَذَا﴾ أي: هذا الذي تراه الآن هو ﴿تَوَائِلُ رُءْيَايَ﴾ التي رأيتها ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وقصصتها لك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: حقيقة.

ثم أكمل في هذا الحشد ذكر نعم ربه عليه قائلًا: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ كثيراً ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ الذي دخلته ظلماً وزوراً، وهو لم يذكر نعمة الإخراج من الجب، لثلاث إخوته الذين تابوا وندموا، أمام هذا الجمع، وفي هذا الوقت، ثم

أضاف من النعم قائلاً: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ إلى هذه الديار الطيبة ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ﴾ فقد نسب ما حدث إلى الشيطان، وقدم نفسه - فيما فعل الشيطان - على إخوته، وذلك من عفة لسان الأنبياء.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ في تدبيره ﴿لَمَّا يَشَاءُ﴾ من أمور، وقد لطف بي في كل ما حدث من ابتلاءات في الشدة أو في الرخاء.

﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يقدره ويختاره لهم.

فكانت هذه خطبة العرش، وكلها إيمان وشكر لله رب العالمين، ولكنها لم تنته بعد، حيث أكمل قائلاً في مناجاة صادقة صافية مع الله:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١)
بدأ يوسف ﷺ لقاءه مع مولاه بذكر نعمه عليه، حيث قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: بعض الملك، آتيتني منه سلطاناً ومكاناً وجاهاً ومالاً، وذلك من نعم الدنيا، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعض علم التعبير، وذلك من نعمة العلم.

وبعد أن عدّد النعم، وردّ الفضل لمولاه وأثنى عليه سبحانه، حيث قال: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يا رب يا خالق السموات والأرض ومبدعهما ﴿أَنْتَ وَلِيِّ﴾ وناصري ومُتَوَلِّي أموري ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ والمُنعم عليّ بالعفو في ﴿الْآخِرَةِ﴾.
وبعد أن أثنى على ربه طلب حاجته قائلاً: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ خذني إليك وأنا على نعمة الإسلام ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين وأشهداء.

وهذا هو النجاح الحقيقي، وهذه هي الفرحة الحقيقية.

وهكذا انتهت قصة يوسف ﷺ بما فيها من دروس، وعظات بالغات.

ويكون التعقيب عليها من المولى مع الحبيب ﷺ، حيث يقول له:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

أي: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك يا محمد ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ التي لا تعرفها أنت ولا قومك، ولكننا ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ إنعاماً بك، وتشريعاً لك، ﴿و﴾ هي أمور وأحداث ما كنت تعلمها، بل ﴿مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: مع إخوة يوسف حينما ﴿أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ على فعل ما فعلوا ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بأخيهم.

ولكننا عرفناك ذلك بالوحي من عندنا، وينبغي أن يؤمن بهذا الوحي، ويؤمن بنا، ويصدقك كل إنسان ﴿و﴾ لكن ﴿مَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ كما تحب وترجو.

ولعدم إيمانهم، فلا تغتم، ولا تحزن، فإنك ﴿مَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فيكون انصرافهم عنك، وعدم إيمانهم بك خوفاً من دفع الأجر إنما هم قوم لم يرد الله هدايتهم. ولذلك فإن ما تقول: مما يوحى إليك ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: تذكرة وهداية وموعظة للناس كلهم في ربوع الدنيا كلها، يرفع الله به شأن من اهتدى بهديه.

ثم بعد هذا التشریف الإلهي لمحمد ﷺ، وبعد هذه التهذئة الربانية لنفسيته التي تتألم لعدم إيمان قومه، وبعد أن بين له عدم اهتدائهم بالآيات المسطورة في القرآن يبين له عدم اهتدائهم بالآيات المنظورة في الأكوان، والنتائج المترتبة على هذا العناد، فيقول:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

يعني: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما من آية، وهي كثيرة جداً ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويرونها في أسفارهم ورحلاتهم، إلا ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يستفيدون منها، ولا يؤمنون بالله بسببها، وذلك بالرغم من أنك لو سألتهم ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]!! ولكن إيمانهم هذا يرافقه شرك بهذا الخالق العظيم.

ولذلك فإنه ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ معه غيره من صنم، أو بشر، أو طبيعة، أو غير ذلك.

ومع أنَّ هذه الحجة قد قامت عليهم بهذا القرآن المسطور، فقد أقيمت كذلك عليهم بآيات هذا الكون المنظور، إلا أنَّهم لم يلتفتوا إلى هذه الآيات المسطورة، أو المنظورة، ومن التفت منهم إليها أو إلى بعضها: يؤمن بالله على شرك.

ولذلك فليس العيب: من عدم الدليل، أو من عدم وضوح الدليل، ولكن في العناد عندهم، والسلوك المنحرف لديهم، ومن هنا يكون الإنذار والتهديد لهم. ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ﴾ نعمة تغشاهم وتشملهم ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ إن ظلُّوا على عنادهم وكفرهم! ﴿أَوْ﴾ آمِنُوا أَنْ ﴿تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ وهي يوم القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمجيئها، ولا يستعدون لها، لم يأمِنُوا هذا ولا ذاك.

إنَّ موقفًا كهذا لا يملك الداعية أمام عناد أهله إلا أن يوضِّح طريقه، ويبلِّغ دعوته فقط، إبراءً للذمة، وأداءً للأمانة، ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالى لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٨)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ وطريقي ومنهجي، ودعوتي ﴿أَدْعُو﴾ بها ومن خلالها ﴿إِلَى﴾ دين ﴿اللَّهِ﴾ وعبادته، وتوحيده، ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ فيها، ويقين بها، ولست وحدي في ذلك الطريق، بل ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ ندعو إلى الله جميعاً، وفقاً لذلك، ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عن كل شريك وتنزه عن كل مثيل أو شبيه ﴿وَمَا أَنَا﴾ ولا من معي ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أبداً معه غيره سبحانه.

وبعد أن لفت المولى نظر الحبيب ﷺ، والدعاة معه إلى وجوب توضيح دعوته، وبيان منهجه، ينتقل معه بالمواساة والتشبيث له إلى إخوانه من الأنبياء، فيقول له:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٩)

أي: لست وحدك يا محمد فيما تلاقيه من إيذاء قومك وعنادهم، فلقد ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلاً كثيرين إلى أقوامهم، وما كانوا ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أشداء ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أهل ألفه، وعشرة طيبة مع أقوامهم، ومع ذلك: فقد حدث لهم ما حدث لك. فماذا فعلنا مع أقوامهم الذين آذوهم وعاندوهم؟ عاقبناهم بما يستحقون.

ولهذا، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي: قومك ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ ويعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فلا يفعلون مثلما فعلوا، ويعلموا أن الإيمان بالله، والعمل للدار الآخرة ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ غضب الله تعالى.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الدورس؟

ثم يبين رب العزة لحبيبه ﷺ إيناساً له، وتأييداً لدعوته، وإعلاماً بنصرته، وتعليماً لأمرته، وتربية لأتباعه أموراً في غاية الأهمية، حيث يقول المولى عز وجل:

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

تبيّن هذه الآية الكريمة ثلاثة أشياء:

الأول: الحال التي وصل إليها الرسل ﷺ من عناد أقوامهم معهم، وتكذيبهم لهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، أي: أرسلنا قبلك يا محمد رسلاً بلغوا أقوامهم، ولم يؤمنوا بهم، ولم نعاقبهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ وفقدوا الأمل في إيمان قومهم، بل ﴿وَضَنُّوا﴾ وأيقنوا أن قومهم كذبوهم، وليس فيهم رجاء، ماذا حدث؟

الثاني: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ بعذاب أقوامهم، ولم ينج إلا هؤلاء الأنبياء، ومن آمن معهم ﴿فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ﴾. وسُتْنَا في مثل هذا الحال:

الثالث: أنه ﴿لَا يَرُدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولذلك: فلا تيأس ولا تبتس يا محمد من عدم إيمان قومك.

وأخيراً، وفي نهاية السورة يوضح ربنا عز وجل الحكمة في سرد القصة في القرآن الكريم فيقول:

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
﴿١١١﴾

أي: ﴿لَقَدْ كَانَتْ﴾ الهدف ﴿فِي﴾ ذكر ﴿قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ على هذا النحو: هو العبرة والعظة والفائدة، ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الذين يُعْمَلُونَ عقولهم فيها، ويستفيدون بها. و﴿مَا كَانَتْ﴾ أبدًا هذا القصص ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ بل هو وحي من الله تعالى فيه التشريع، وفيه الدستور، وفيه منهج الفلاح والنجاح، ﴿وَلَٰكِن﴾ مع ذلك، نوضح أهداف هذا القصص فيما يلي:

أولاً: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ممَّا نزل على الأنبياء السابقين قبل تحريفه.
ثانياً: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحلال والحرام، وغير ذلك.
ثالثاً: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: هُدى من الضلال، وهداية للرشاد، ورحمة من متاعب الحياة في الدنيا، بل رحمة من عذاب الله في الآخرة.
ولكن لمن؟ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيهتدون.
